ستوديو (ثقافة شعبية)

بغـــداد مـن الخـــارج عـــام ١٧٨٠

حكـــايـــات الجـــدة والـبلي ستـيـــشـن

عامر العكايشي

لم يكن الاطفال يستطيعون النوم الا وهم يستمعون لاحدى (حكايات الجدة) وغالبا ما تكون تلك الحكايات اما وعظية ارشادية او لغرض التسلية وقضاء الوقت او واقعية. فما ان يحين وقت النوم حتى يترك الاطفال اليافعين امهاتهم وابائهم ويحومون حول جدتهم بخطين متوازيين اذا كان عددهم اكثر من ثلاثة وبخط يمتد من رأس الجدة الى منتصفها اذا كان عددهم اقل من ذلك، وما ان يجتمع الاطفال حول الجدة حتى تبدأ بسرد احدى حكاياتها اليومية وعادة ما تبتدأها بالقول الماثور (ذيج ما ذيج السالفة) ثم تغوص في سرد حكايات جميلة لم ننسها او ينساها الكبار رغم تقادم ومصاعب ومتاعب الايام.

ولكن هذه العادة الفلكلورية الجميلة بدأت في السنين الاخيرة بالاضمحلال يوما بعد اخر وبقيت القليل من الجدات ممن حافظن على تلك العادة وذلك التراث ولازلن مستمرات بسرد الحكايات لاحفادهن يوميا.

تقول الحاجة (ام فاطمة) وهي تضع بين يديها وعاء فيه رز تنظفه من الشوائب " رغم انني لم استمع الى حكايات الجدة فلسوء الحظ لم تكن جدتاي الاثنتان على قيد الحياة عندما كنت طفلة صغيرة ولكن مع هذا فانا على يقين بان (السوالف) مفيدة للطفل فهي تجعله يهدئ ويترك البكاء ويخلد الى نوم عميق وقد كنت اشاهد جدة اولادي الذين كانوا اطفالا حينذاك عندما تحكي لهم الحكايات الجميلة كيف يهدؤون ويتركون (الوكاحة) ويخلدون الى النوم في وقت كنت اعاني كثيرا من اجل اسكاتهم وتهدأتهم وجعلهم ينامون في الوقت المناسب ".

تسكت برهة لشرب الشاي ثم تقول " عندما كانت حفيدتي (فاطمة) تبلغ سنتين من العمر وفي يوم من الايام كانت تبكي بشدة دون معرفة السبب وحاولت امها اسكاتها بشتى الطرق الا انها لم تفلح في ذلك عندها قلت لامها اعطني اياها أحك لها حكاية علها تسكت، وفعلا ما ان بدأتُ بسرد الحكاية حتى سكتت فاطمة وهدئت هدوءا عجيبا مع انها لم تكن تفهم ما اقوله ونامت على الفور، ومنذ ذلك الحين والى الان حيث اصبح عمر فاطمة (خمس سنوات) وهي لا تنام قبل ان تستمع لحكاية من حكاياتي التي حفظتها من جدة ابنائي".

اما حفيدتها الجميلة فاطمة فتقول وهي تقف قرب جدتها وتضع يديها على كتفيها " لقد اعتدت على سماع الحكايات كل يوم واطلبها من جدتي فهي حكايات جميلة جدا وانا احبها كثيرا ".

اما الحاجة ام عبد الله فتقول " قبل عدة سنوات كنت احكي الحكايات لاحفادي ولكن الان لعد يعد الاطفال يتلهفون لسماع الحكايات ولا اعرف السبب وراء ذلك، هل ان حكاياتنا لم تعد ذات جدوى في هذه الايام ؟ مع انني في الحقيقة اشتاق كثيرا لان احكي الحكايات ولكن يظهر ان سوق الحكايات غير رائجة هذه الايام ".

حسين عبد الله (حفيد ام عبد الله) يقول " لم اعد احب سماع الحكايات فقد انشغلت مع اخوتي وابناء عمومتي بلعبة الـ(بلي ستيشن) وهي لعبة مسلية جدا وجميلة ".

ويشاطره (احمد) ابن عمه الراي ويقول " كنت ارى جدتي قبل عدة سنوات وهي تجمع اخوتي وابناء عمي حولها وتحكي لهم حكايات اعتقد انها جميلة وكنت اتمنى ان افهم ما تقوله جدتي وكنت اتشوق عندما اكبر ان اسمع تلك الحكايات ولكن الـ(بلي ستيشن) جميل جدا ولا استطيع فراقه ولو للحظة خصوصا عندما يكون التيار الكهربائي موجودا ".

الحاجة (ام جبار) قال " أي حكايات تتكلم عنها يا بني فالاوضاع هذه الايام لا تسمح وغير ملائمة للحكايات فاين الكهرباء واين راحة البال واين هم الاطفال الذين يسمعوننا كي نحكي لهم فكلهم مشغولون بلعب الكرة والـ(بلي ستيشن) والـ(الاتاري) كما ان صحتي لم تساعدني على الحكايات ".

يقول فاضل حسين الأخصائي بعلم الاجتماع " لكل زمن تغيراته ومتطلباته، ولكل زمن جيله الخاص به فعندما كنا صغارا لم نكن نقدر على النوم الا بعد سماع حكاية من حكايات جدتنا الجميلة وكل اصدقائي واقاربي كانوا كذلك حتى اننا كنا نتبادل الحكايات فيما بيننا، اما الان فقد تغير الوضع كثيرا بعد تطور الاجهزة الترفيهية وتخصيص الكثير من العلماء الجزء الاكبر من وقتهم كي يملأوا اوقات فراغ الاطفال بامور قد تنفع احيانا وقد تضر في احيان اخرى فقد دخلت الالعاب الالكترونية بمختلف انواعها ودخل الستلايت ودخل الموبايل الذي اصبح الكثير من الاطفال لديهم جهاز واحد على الاقل كل ذلك جعل حكايات الجدة تنقرض شيئا فشيئا ومع انها عادة فلكلورية جميلة الا انها لابد ان تشهر الراية البيضاء امام وسائل ترفيه الاطفال العديدة الموجودة حاليا ".

من المحرر

رمضان والحياة الاجتماعية

باسم عبد الحميد حمودي

نحن في الاسبوع الاول من (رمضان) المبارك وقد جرى الزمان على تقاليده الشعبية فاختفت= او كادت- سهرات المحيبس في المقاهي الشعبية وغاب عن حواري وشوارع بغداد (ابو طبيلة) وقت السحور وكان –الى سنوات قريبة- يمارس (مهنته) الموسمية بشكل متطور، ففي عصر الخمسينيات من القرن العشرين كان (المسحراتي) او (ابو طبيلة) يدور بطبله موقعاً عليه نداءاته للناس بالقيام من النوم وتناول طعام السحور وهو يقضي وقتاً طويلاً نسبياً في الدوران في الشوارع، لكنه بعد ذلك غير طريقته واستخدم سيارة البيكب حيث يقف مع طبله في حوضها وهو يضرب الطبل وينادي، اما اليوم فقد اختفى من كثير من محلات بغداد.

من تقاليد رمضان الجميلة قديماً السهر في المتنزهات والحدائق وتناول العصير او (التمتوعة) وزيارات الاقارب والجيران المتبادلة وقيام ربة الدار قبيل الافطار بارسال صحن من طعام الاسرة للجيران للاهداء وقيام بعض الاسر الموسرة او الاقل مستوى بارسال وجبة طعام افطار الى الجامع والحسينية المجاورين ليفطر المصلون عليها ويقرؤن الفاتحة على ارواح اعزاء الاسرة الذين رحلوا واعتقد ان هذا التقليد لا زال مستمراً وراسخاً.

من تقاليد رمضان الدينية صلاة التراويح وسماع الدرس الديني والعاب الصبيان في الشوارع والحارات قبيل الافطار واجتماعهم بعد هذا (بعد الافطار) على شكل مجاميع للدوران على البيوت ونيل نقود (الماجينه) وصياحهم (يا اهل السطوح تنطونه لو نروح) وذلك اذا تعطل اهل الدار عن تلبية النداء فاذا (انطوا اذن الطرشه) صاح الصباح (سربس على سربس تنطونه لو نتكريس) فاذا امتنعوا صاح الصغار (جبوا علينه الماء يا بيت الفكر) و (الفكر) هو (النقر) ولا ماء رمي ولا يحزنون لكن التاريخ الاجتماعي يقول ان الناس قديماً كانوا يفطرون- وقت الصيف) في سطوح المنازل وكان ابطال الماجينه الصغار يكثرون من التحوال والصياح فيعمد احد اطفال البيت او بناته برمي الماء من السطح الى الشارع لتفريق ابطال الماجينه الذين سرعان ما ينصرفون منادين بانشودتهم (جبوا علينه الماي..) ولا احد يزعل ولا احد يعاتب فالحياة ماشية ورمضان كريم دوماً ومن كرمه ان يمن الباري على الناس بالامان والسلام ويوفر لرمضان وسائر الاشهر والايام حرية الحياة الامنة للجميع وكل رمضان وانتم بخير.

ثقافة شعبية

أثر القرآن والحديث النبوي في الدارمي

للقران الكريم أثر واضح في أغناء الفكر الشعبي والارتقاء به إلى مستوى الآداب الأخرى، فقد استلهم الشاعر الشعبي، الكثير من الآيات والمفاهيم القرآنية، وأودعها في أبياته للاعتبار بها وأغناء تجربته بمعاني القرآن الكريم.

ورغم المحدودية الثقافية لشعراء الدارمي، فانهم من خلال ممارستهم لطقوسهم الدينية،واستماعهم إلى محاضرات الإرشاد الديني والمجالس الوعظية المتمثلة بالمجالس الحسينية،استطاعوا الاستفادة من الجانب الوعظي لقصص الأنبياء ، والحكايات الدينية الواردة في القرآن الكريم، وتمكنوا من استيعاب مفاهيم بعض الآيات القرآنية، فأدخلوها في أشعارهم وأقوالهم وأمثالهم ومأثوراتهم الأخرى، لذلك آكتسب الأدب الشعبي معاني سامية من خلال ألإطلاع على الفكر القرآني،تمكن من خلالها الإبداع في رسم الصور المعبرة عن أفكاره الممزوجة بالتراث الديني.

وأدناه بعض النماذج التي يظهر فيها تأثير القرآن الكريم:

صبري أعله صبر أيوب زاد وتعده
وما كلت مسني الضر عفيه انه جلده

والاقتباس هنا من قوله تعالى (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين)

كلبي سفينة نوح وتدو لب ابماى
واللازم السكان متعذب وياي

وقصة نوح وسفينته من القصص القرآني الذي لا يحتاج إلى توضيح.

مثل آدم انغريت منها أطردوني
كالولي أكل من هاي ويه ورطوني

أشارة إلى قوله تعالى((وقلنا يا آدم أسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا" حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان منها وأخرجناهما مما كانا فيه))

فحواء هنا ارتكبت ذات الذنب،ولكن بأغراء من آدم الذي زين لها طريق السوء، فساء فعلها في أعين ذويها وكان مصيرها الموت.

صرت آنه أبن شداد من بنه ألجنه
هم أبني واتعب بيه تالي أمشي عنه

وجنة عاد ابن شداد ورد ذكرها في القرآن الكريم، وأصبحت مثلا بين الناس.

أي والعرش واللوح والبلعته الحوت
نارك بلب احشاي تلهب لما موت

والذي ابتلعه الحوت هو النبي يونس فنجاه الله،وقد وردت قصته في القرآن الكريم.

بالبحر طاح وراح مفتاح الكلوب
صبر الصبر ته عليك ما شافه أيوب

وصبر أيوب أصبح مثالا" للصبر والصابرين، وقصته أشهر من أن تذكر

مثلت حلو الطول يوسف الثاني
وآنه الصرت يعكوب يوم لجفاني

وهذه الإشارة إلى قصة النبي يوسف (ع) مع زليخة التي حاولت إغراءه، وقصته مع أخوته الذين أدعوا أن الذئب قد أكله، وحزن يعقوب عليه.

٢الحديث الشريف في الد ارمي

للحديث النبوي الشريف أثر واضح في أغناء الشعر الشعبي،وقد استفاد الدارمي من بعض المفاهيم والمثل القرآنية وعبر من خلالها عن مشاعر وأحاسيس الناس فصور المتاعب التي عانوها، فقد تناول الحديث الشريف(أحمل أخاك المؤمن على واحد وسبعين محملاً) واستطاع توظيفه في شعره وأدخله بصورة معبرة توحي بالإبداع والقدرة على الاستفادة من هذا التراث العظيم:

للواحد وسبعين أحملني يهواي
ليش عله كسرت عود صار اللبن ماي

وأخرى تشير للحديث ذاته ولكن بطريق آخر:

منك بدت سبعين سيه عله سيه
ثاري الظنون أجنون غسلت أديه

وهناك الكثير من الأحاديث النبوية التي أستلهمها الدارمي بمعناها العام منها:

أنكسر ضلعي بيوم ولفي جفانه
وانه الصرت يهواي من ضلعك أنه

وهذا من قوله(ص)(إنما خلقت المرأة من ضلع أعوج)

الجـن والملائكـــة في الـتفكـير الـشعـبـي

محمد علي محيي الدين

أعطى الإنسان للكائنات غير المنظورة الكثير من تفكيره، وصاغ لها في خياله صورة مرعبة جعلته أسير تلك المعتقدات التي صورتها الأجيال عبر عصور، وهذا الخوف كامن في عقل الإنسان، بفعل التراكم المتجذر في أعماقه من الحكايات والقصص التي خلقها المجتمع من خلال الحكاية والأسطورة والأحاديث العابرة في الجلسات اليومية، لذلك شغلت حيزا واسعا من تفكيره، رغم ما وصل إليه من رقي في سلالم العلم، وتقدم في المجالات الثقافية والاجتماعية، ورغم التقدم الهائل الذي وصل إليه العلم الحديث، ظلت هذه الترسبات تظهر وتختفي في المجتمعات بحسب درجات وعيها ورقيها، لذلك نلاحظ انحسار الكثير من هذه المعتقدات بعد التطور ألـوعيي والمجتمعي أواسط الخمسينيات حتى أواسط الثمانينيات، وبدأت بالظهور تدريجيا بفعل الحروب والتداعيات الخطيرة التي عاشها العراقيون، مما جعلهم يرتمون في أحضان المعتقدات القديمة والرجوع بتفكيرهم إلى الوراء في ردة عجيبة لا تنسجم والطبيعة المعروفة للتقلبات الاجتماعية، بسبب التردي الذي أحاق بالمجتمع، مما جعله يلجأ إلى الرؤى الغيبية البعيدة عن العقل والمنطق، وأعتمد ما تجاوزه طيلة عقدين، فلجأ الناس إلى الطب الشعبي والتداوي بالأعشاب، والاعتماد على السحرة والمنجمين في أيجاد الحلول لمشاكلهم الحياتية، والاعتقاد بالقوى الخارقة التي توسموا فيها الخلاص:

❖صياح الديك:أذا صاح الديك هرب الجن، فصوت الديك هو أذانه، فيهرب الجني إذا سمع الآذان، والإنكليز يعتقدون ذات الاعتقاد"فإذا صاح الديك هرب الجني عائدا إلى مسكنه الجهنمي"كراب/٣٥٥

❖نباح الكلاب:أما إذا نبحت الكلاب دون سبب ظاهر، فيعني ذلك أن جنيا مر بجوارها، أو أراد إيصال اذاه إليها، فتنا بحت عليه فولى الأدبار خوفا منها.

❖أذا واجهك أحدهم فقدم له عصاك، فإذا مسكها بيده واحترقت فهو من الجن، فيما يقول كراب"وأما قبضته فخطيرة غاية الخطورة، فإذا مد يده فمن الخير أن تمد عصاك، فستجدها محترقة"

❖سكب الفوح والماء الحار: والفوح هو الماء المبزول من الرز بعد غليانه، فإذا أرادت المرأة سكبه على الأرض أو في البالوعة، أو إذا أرادت سكب الماء الحار وجب عليها قراءة البسملة، لتنبيه الجن والملائكة المقيمين في ذلك المكان، للابتعاد عنه حتى لا يؤذيهم، وبعض النسوة يرددن عند سكبه"أيها الملائكة غطوا رؤوسكم فالماء الحار قادم إليكم".

❖الخوف من المجهول: والخوف مما هو غامض غير معروف، وما يمكن أن يؤديه ظهوره المفاجئ من أذى، جعلهم يتحرزون ويتيقظون، فإذا دخل أحدهم إلى مكان مظلم، أو خربة مهجورة، عليه قراءة البسملة والمعوذتين لطرد الأرواح الشريرة، وعدم ظهورها له، وتلجأ بعض النساء إلى اصطحاب الأطفال عند دخولهن الأماكن المظلمة، وقد تحمل معها سكينا حادة أو إبرة لاعتقادها أن الجن يخشون الحديد ولا يقتربون من حامله.

❖النار:والنار من ضرورات الحياة، وفي القرى والأرياف خاصة يعمد الناس لعمل المواقد الطينية، لأغراض الطبخ وعمل الشاي والقهوة قبل شيوع أدوات الطبخ الحديثة، فإذا انتقلت الأسرة إلى مكان آخر عليها دق مسماراً أو قطعة حديد في الموقد المتروك لطرد الأرواح الشريرة، لأنها تتواجد قرب المواقد، ويعزو الناس أسباب الجنون والاختلال العقلي إلى دخول الجن في رؤوس الأشخاص، وإذا كان الطفل كثير الحركة، لا يستقر في مكان واحد قيل عنه"طافر موكد".

❖الدار المسكونة:وتعتقد جدتي اعتقادا جازما بالأرواح الشريرة، وأن الدور مسكونة بالأرواح، والأرواح الشريرة تؤدي إلى حدوث الشر، وإثارة المشاكل والمكارة، والأرواح الخيرة تجعل أهل الدار في بحبوحة من العيش الرغيد، وأكثر البيوت مسكونة بالجن الذين يروننا ولا نراهم، ومنهم كفرة لم يؤمنوا بسيدنا سليمان وعصوا أمره، وخرجوا عن طاعته، وهم مصدر الأذى والشر لأهل الدار، ويرمون عليهم الحجارة، أو يلعبون بأواني الطعام، أو يسكبون الماء، وبعضهم كما تقول جدتي يمزحون مع أهل الدار، ويخفون الأشياء عنهم عند الحاجة إليها، وحدثتني جدتي عن أحدى النساء من محلة الوردية، ترتبط معها بصلة رحم، حدثتها أنها ذات يوم سمعت صوت "القبقاب" يسير على الأرض وكأن أحدهم يحتذيه، ولم تشاهد من يلبسه، فعرفت أنه الجني الذي سكن دارهم، فتعوذت بالله وطلبت منه ترك المزاح فذهب عنها!!

❖ذكر الجن ليلا:وإذا ذكر الجن ليلا أثناء الحديث، أمسكت جدتي بأذنيها وهي تقول:عجوه ما نحمل شكوه" حتى لا يؤذوها لذكرهم، ويظهر أن ذلك ما يفعله العرب سابقا فقد ذكر التوحيدي في البصائر٢/٦٥٦ "إذا ذكروا الجن ليلا، أخذوا بطرف أذانهم"ويمنعون على الأطفال ذكرهم، حتى لا يظهرون لهم في أحلامهم، وتمتنع جدتي عن أيراد حكاياتهم ليلا، خوفا من الكوابيس التي قد يصاب بها الأطفال.

❖أعتاب البيوت:ويسكن الجن أعتاب البيوت، لذالك على الإنسان عند عبوره عتبة الدار، أن يبسمل لئلا يصيبه ضررها، وعلى الأسرة رش الماء على الأعتاب حتى لا تستطيع الشياطين الخروج والعبور إلى داخل الدار.

❖قتل الجن:والجن تموت بالسيف أو الخنجر، فإذا ضربها أحدهم تقول له "ثن" أي أضرب ثانية، فإذا أعاد الكرة عادت إلى الحياة ثانية وأوصلت أذيتها إليه، وأن تركها تحولت إلى رماد.

❖الوقاية من الجن:وللوقاية منها والتخلص من شرها، إذا دخلت العروس إلى أحد الأماكن التي يحتمل تواجد الجن فيها، عليها أن تغرز إبرة في ملابسها، لأن الجن تخاف الحديد وتهرب من حامله، وإذا دخلت المرأة التي ولدت حديثا"النفساء" إلى مكان مظلم عليها أن تأخذ عصا وتضع على أحدى طرفيها"رأس بصل"يابس، لأن الجن تغشى البصل ولا تقترب منه، وإذا لم تفعل ذلك أصيبت بالجبسه.

❖الجن والذئاب:والجني ذلك المخلوق المخيف الذي صوره الخيال الشعبي بصور شتى، جعل الإنسان يرتجف فرقا لذكره، ويتصاغر حياله، هذا المارد يخاف الذئب، ولا يستطيع الوقوف بمواجهته، ويتحول إلى حجارة عندما يراه، فإذا أراد قتله، تبول على تلك الحجارة، فيظل على تلك الحالة أربعين يوما، ويعود لحالته الطبيعية، ويعتقدون أن هذه الحجارة إذا عثر الإنسان عليها، فأنها تتحول إلى "خرزة" نادرة المثال، ولكن الذئب الذي يخشاه الجن ويرتعدون لرؤيته، يخاف ويتضاءل أمام الكلاب، وخصوصا السوداء منها، فإذا عضه الكلب الأسود، فأن عضته لا يشفى منها أبدا، وتودي به إلى الموت، ولاعتقاد النساء بأن الجن تخشى الذئاب، إذا وضعت أبنها على الأرض، فأنها تخاف عليه من تلك الكائنات غير المنظورة، فتذكر الذئاب في كلامها حتى يهزم الجن، ولا تصل أذيتهم إليه، لذلك يعلق سن الذئب في ملابس الطفل الذي ولد حديثا خوفا من الجن.

❖ذ:ويتجنب الكثير من الناس المرور بالمقابر ليلا، أو اجتيازها خوفا من أرواح الموتى التي تخرج من القبور، ويقال أن أرواح الموتى تنادي المارة، وقد تضربهم بالحجارة، ويعتقدون أن المقابر مسكونة بالجن الذين يعيشون على الموتى، ويحاولون إيذاء من يمر بقربهم، وأرى أن أسباب خوف الإنسان من المرور بالقبور أو السير في الأماكن المخيفة ليلا، هو القصص والحكايات التي يسمعها الأطفال من أمهاتهم أو جداتهم، فأن هذا الشعور المختزن عبر السنين، جعل الخوف يكمن في نفوسهم حتى بعد كبرهم، فإذا اقتربوا من المقابر أو دخلوا وسطها، عاد عقلهم الباطن لخزينة الموروث من القصص والحكايات، فإذا سمع حركة أو صوتا، يخال إليه أن الجن هم الذين عملوا ذلك، لأنه مهيئ أساسا لمثل هذه الاحتمالات، لذلك تراهم يسرعون أو يتحاشون الدخول اليها منفردين، والخوف الإيحائي أو الكامن مما تطرق إليه علماء النفس في بحثهم لهذه الظواهر.

هذا بعض ما سمعته وتهيأ لي جمعه من اعتقادات الناس بالجن والأرواح الشريرة التي يعتقدون بها دون أن يروها، ويتصورونها تعيش في الأماكن المظلمة، والقبور والحمامات والآبار والسراديب والبالوعات والمواقد والأماكن المهجورة والمقابر والخرائب والبساتين وأعتاب البيوت، وهذه المعتقدات ليست من نتاج مجتمعاتنا فقط، فالمجتمعات الغربية والشرقية تلتقي في هذا الاعتقاد، وربما لنا عودة لبيان وحدة التفكير الشعبي في العالم.